

القعقاع بن عمرو

الفارس الذي جاء بالأمل



Joylino

القعقاع بن عمرو

الفارس الذي جاء بالأمل

نظر الحارس إلى البعيد وهو يضيق عينيه. في البداية، لم ير سوى الغبار. ثم ظهرت من بين الغبار رؤوس الخيول، وبعدها الفرسان. نادى: «هناك قادمون!» فاعتدل الجنود المتعبون. وضع بعضهم إناء الماء من يده، ونهض بعضهم من مكانه في الظل.

وحين اقترب الفارس الذي في المقدمة، أشرقت وجوه من عرفوه. قال أحدهم: «القعقاع!» وانتشر الخبر سريعاً بين الخيام. لقد وصل القعقاع بن عمرو. كان غبار الطريق الطويل يغطيه، وكان فرسه متعباً مثله. لكن صوته كان قوياً وهو يحييهم: «جئنا إليكم. والآن سنتقاسم معكم الأعباء». وفي لحظة، شعر الجنود المنتظرون أنهم أقل وحدة.



كان القعقاع قد تولّى مهامٍ كثيرة قبل أن ينطلق في هذه الرحلة. وتذكره روايات التاريخ فارساً شجاعاً شارك في الحملات إلى جانب خالد بن الوليد. اجتاز طرق العراق، وشارك في المعارك في بلاد الشام. وكان يعرف ما تعنيه الرحلات الطويلة، والانتظار الصعب، والعمل معاً.

كان لكل فرد في فرقته عمل. فبينما يراقب الجندي في المقدمة الطريق، يعتني الجندي في الخلف برفيقه الذي تأخر. وكان القعقاع ينظر إلى من معه قبل أن يسرع بفرسه. فلم يكن يكفي أن يصل القائد وحده إلى المكان الذي يقصده؛ كان عليه أن يوصل فرقته أيضاً. والآن، كانت أمامه إحدى أبرز المهام التي ستجعل اسمه مشهوراً: إيصال النجدة إلى القادسية.



في القادسية، كان سعد بن أبي وقاص يقود جيش المسلمين. وأمامهم كان الجيش الساساني القوي. كانت المعارك قد بدأت، وعاش الجنود أياماً صعبة. وكانوا ينتظرون وصول قوات المساندة.

وبحسب ما يُروى، كان القعقاع يقود مقدمة القوات القادمة. وفي إحدى الاستراحات على الطريق، تناقل الجنود أوعية الماء من يد إلى يد. سأل فارس: «كم بقي لنا من الطريق؟» فأجاب القعقاع وهو يتفقد زمام فرسه: «علينا أن نصل إلى الذين ينتظروننا. فلنرح الخيول أولاً، ثم نعود إلى المسير». وبعد الاستراحة القصيرة، ثبتت الأمتعة. وعادت أصوات حوافر الخيول تُسمع على امتداد الطريق.



يُروى أن القعقاع قسّم فرسانه إلى مجموعات صغيرة حين اقترب من القادسية. وكانت المجموعات ستصل إلى المعسكر واحدة بعد أخرى. وكان هو في مقدمة أول الواصلين.

وبينما كان الجنود يستقبلون مجموعة، كانت أخرى تظهر في البعيد. ثم مجموعة أخرى... أفسح الجنود مكاناً لرفاقهم القادمين، وقدموا لهم الماء، وسألوهم عن الأخبار. وها هي النجدة التي قطعت كل ذلك الطريق أمام أعينهم الآن. كان القعقاع يريد أن يمنح وصولهم الجيش المتعب مزيداً من الشجاعة. في ذلك الصباح، لم يزد عدد الفرسان في المعسكر وحده؛ بل كبر أيضاً أمل الناس الذين انتظروا أياماً. لم يقل أحد إن الصعوبات كلها قد انتهت، لكنهم سيواجهونها الآن معاً.



التقى القعقاع بالقادة وعرف كيف تسير الأمور. ثم عاد إلى فرقته. فالتحدي الذي ينتظرهم في القادسية لم يكن مجرد تعب رحلة طويلة. كان على كل واحد أن يعرف مهمته، وأن يعمل مع الفرق الأخرى.

صمت جندي شاب وهو ينظر إلى السهل المقابل. وقف القعقاع إلى جانبه وسأله: «ما الذي يشغل بالك؟» قال الجندي: «يبدو عددهم كبيراً جداً». ونظر القعقاع أيضاً إلى السهل، ثم قال: «لهذا لن نفقد بعضنا بعضاً. اتبع قائدك، ولا تبتعد عن رفيقك». أوماً الجندي برأسه. لم تُزل تلك الكلمات الخطر، لكن معرفته بما عليه أن يفعله منحتة القوة.



كانت مع الجيش الساساني فيلة أيضاً. وكانت أجسامها الضخمة وروائحها غير المألوفة تُخيف خيول فرسان المسلمين. أخذ أحد الخيول يتراجع إلى الخلف، بينما أمسك صاحبه بزمامه بقوة. وفي مكان آخر، حاول الجنود إغلاق الفراغ الذي ظهر بين الصفوف.

ويُروى أن القعقاع وأخاه عاصماً تولّيا مهام مهمة في هذه المعركة الصعبة. وحين اقترب الخطر، تحركا جنبا إلى جنب. راقب القعقاع ما حوله، محاولاً أن يعرف أين يحتاج رفاقه إلى المساعدة. وكان يظهر شجاعته بالوقوف إلى جانبهم. في لحظة كهذه، كانت كل فرقة تعتمد على الأخرى. فقد يؤدي تفرق إحداها إلى زيادة الصعوبة على غيرها.



مع مرور ساعات النهار، غطّى الغبار السهل. واختلطت الأصوات، حتى إن رؤية ما يبعد بضع خطوات كانت تصعب أحياناً. وكان القعقاع، وهو يتحرك في مقدمة فرقته، يحاول التأكد من أن الفرسان خلفه يستطيعون اتباعه.

نادى: «معاً!» وانتقلت كلمته من جندي إلى آخر. فتجمع الفرسان من جديد، وأخذوا أماكنهم إلى جانب رفاقهم. وتذكر الروايات التاريخية أن القعقاع قاتل بشجاعة في القادسية، وكان له دور مهم في نجاح الجيش. وسيدكره الناس قائداً يتحمل المسؤولية في الأوقات الصعبة، ولا يتراجع حين يكون عليه أن يتقدم. لكن هذه المعركة الكبيرة كانت تستمر بجهود كثير من الناس معاً.



بعد أيام من القتال في القادسية، انتصر جيش المسلمين. وحين انتشر الخبر، ظهر الفرّح على الوجوه المتعبة. وضع الجنود أيديهم على أكتاف بعضهم بعضاً، وكان بعضهم يبحث عن رفاقه الذين كانوا بعيدين.

لكن الحرب سبّبت خسائر كبيرة أيضاً. قدّمت المساعدة للجرحى، واجتمعت الفرق من جديد. وتذكّر أحد الجنود الذين إلى جانب القعقاع ووصلهم الأول إلى المعسكر. كان الخبر الذي انتشر بين الخيام ذلك الصباح قد منحه القوة من جديد. والآن، كان يري القعقاع مع رفاقه. كانت ثياب القائد مغطاة بالغبار. وقد تعب هو أيضاً مثل الجميع، لكنه ظل يهتم بمن حوله، ويتابع الأعمال التي ينبغي إنجازها.



لم تنتهِ مهام القعقاع عند القادسية. فاسمه يرد في روايات التاريخ عن حملات أخرى أيضاً. وكان أحياناً يقود قوات المقدمة؛ فينطلق قبل الجيش، ويتحمل مسؤولية مهمة جديدة. وكانت الأيام والطرق والمدن التي يمر بها تتغير.

وكان يُحكى عنه أمر آخر أيضاً: أنه كان يقول الشعر. كان يصف بكلماته المعارك وجهود رفاقه. وفي الليل، وهم يستريحون، سأله فارس: «هل ستحكي عن هذا اليوم أيضاً؟» نظر القعقاع إلى من حوله وقال: «هناك الكثير لنحكيه، وخاصة ما فعلناه معاً». وفي ذكريات الحرب، لم يكن المكان للقائد وحده، بل لمن ساروا معه أيضاً.



بعد سنوات، نشبت خلافات بين المسلمين. وكانت المهمة التي تنتظر القعقاع هذه المرة مختلفة. فقد طلب منه أن يجري محادثات باسم الإمام علي، وأن يساعد المتخاصمين على التفاهم.

انطلق القعقاع. استمع إلى الناس، وحاول أن يصلح بينهم. كان قد استخدم صوته في ساحة القتال ليصل إلى رفاقه، والآن صار يبحث بالصوت نفسه عن طريق إلى الاتفاق. لم تستطع هذه الجهود أن تمنع القتال تمامًا. ومع ذلك، بقيت في قصته تلك المهمة التي تولّاها ليصالح بين الناس. ففي حياة هذا القائد القوي، كانت هناك أيام قاتل فيها بشجاعة، وأيام بحث فيها عن الحل بالحوار.



المعلومات عن طفولة القعقاع وسنواته الأخيرة قليلة جداً. لكن الكتب القديمة تروي أخبار شجاعته وقيادته وأشعاره. وحين يُذكر اسمه، يتذكر الناس فارساً قوياً يصل إلى رفاقه في وقت الشدة.

تذكر الحارس في بداية حكيتنا. لقد رأى أولاً سحابة غبار في البعيد. ثم ظهرت الخيول، وبعدها سمع صوت: «جئنا إليكم».

تلك الكلمات تلخص رحلة القعقاع في هذه الحكاية. أن تقطع الطريق الطويل لتأتي بالنجدة، وأن تواجه الخطر مع رفاقك، وأن تتحمل المسؤولية إلى جانبهم... لقد رأى الذين كانوا ينتظرون في القادسية فرساناً جدداً ذلك الصباح.

ومع القادمين، جاء الأمل أيضاً.

